من لم يفهم عدوه طبعه اللّٰه بطابع عدوه



دكتور

إبراهيم محمد عبد الجليل

من لم يفهم عدوه طبعه الله بطابع عدوه

بقلم
دكتور / إبراهيم محمد عبد الجليل

مقدمة



بدأت هذه الفكرة من موقف بسيط مع صديق لي يعمل مدرسًا للفيزياء. كنت أرى أن هناك شخصًا يمثل عدونا المشترك، فحاولت أن أشرح له الأمر بوضوح: "فلان عدوك وعدوي". لكن صديقي، رغم كونه معلّمًا للعلم الذي يفسر قوانين الكون، لم يقتنع بكلامي. عندها خطر لي أن أترجم الفكرة إلى لغة يفهمها؛ لغة الرياضيات والفيزياء التي يتقنها، خاصة وأنني مهتم بما يسمى الفيزياء الاجتماعية، ذلك العلم الذي يحاول أن يفسر السلوك البشري والجماعي باستخدام نفس القوانين التي تحكم حركة الأجسام والقوى في الطبيعة.

فالناس، مثلهم مثل الجسيمات، يخضعون لقوى التأثير والضغط، ومن لا يفهم طبيعة القوة التي تؤثر عليه، ينقاد لها تلقائيًا كما ينقاد الجسم لخطّ القوة. ومن هنا صغت له قاعدة عامة، في صورة أقرب إلى القانون: **من لم يفهم عدوه طبعه الله بطابع عدوه**. ومن هذه اللحظة تحولت الحكمة البسيطة إلى رحلة فكرية جمعت بين القانون والفيزياء والرياضيات والتاريخ، لتكشف أن الجهل بالعدو لا يؤدي فقط إلى الهزيمة، بل إلى التشكل على صورته.

قاعدة على هيئة "قانون": من لم يفهم عدوه طبعه الله بطابع عدوه. ومن هنا بدأ مشوار البحث: كيف يمكن لحكمة موجزة أن تتحول إلى مبدأ قانوني، ثم إلى برهان رياضي، ثم إلى مثال فيزيائي، بل وأن تجد شواهدها في التاريخ الإنساني كله؟

تبدو العبارة للوهلة الأولى حكمة شعبية أو قولاً أدبياً، لكنها سرعان ما تنفتح على دوائر أوسع حين يُعاد صياغتها في لغة القانون أو في لغة العلم.

الحكمة كمبدأ قانوني

عندما نترجم العبارة إلى عالم التشريع، تظهر لنا بوصفها مبدأً عاماً موجهاً: "من جهل عدوه تشكّل على صورته". هذا التبسيط يحول الفكرة إلى قاعدة تفسيرية يمكن أن تلهم المشرّع أو القاضي. فالقانون لا يقتصر على تنظيم السلوك، بل يحمل أيضاً قيماً عليا تسترشد بها الدولة والمجتمع. وفي هذا السياق، يصبح الجهل بالعدو. أي بعدم معرفة طبيعته أو أساليبه. خطراً قانونياً يعادل الإهمال، ونتيجته أن ينقلب الجاهل صورةً عن خصمه، سلوكاً ونتائج.

ويمكن أن تُصاغ في شكل قاعدة قانونية، بحيث تتحول من صياغة وعظيه أو أدبية إلى نص ذي طابع تشريعي. مثال

مادة (١): كل من أهمل في فهم عدوه وإدراك أساليبه وأهدافه، عُدّ مقصِّرًا في حماية نفسه وجماعته، ويُعتبر متحمِّلًا لنتائج فعله، إذ يُعاقب بمآلات مشابهة لما ابتُلي به عدوه، جزاءً وفاقًا.

مادة (٢): يُعدّ جهل العدو أو التشبه به عن غير وعي تقصيرًا يُفضي إلى سقوط الهيبة والاستقلال، ويُعتبر هذا الجهل قرينة على الانقياد له في السلوك والفكر.

هذه الصياغة تحوّل المعنى المجازي إلى معنى قانوني (العقوبة بالنتائج المترتبة على الجهل بالعدو أو التشبه به).

من البلاغة إلى البرهان

لكن هل تظل هذه الفكرة مجرد حكمة أخلاقية؟ هنا تبرز محاولة البرهنة عليها بلغة الرياضيات. فقد جرى بناء نموذج مبسط للعبة متكررة بين "عدو" و"غافل".

العدو يغير استراتيجياته في كل جولة.

الغافل، لافتقاره للفهم، يكرر في الجولة الجديدة ما شاهده من عدوه في الجولة السابقة.

النتيجة المنطقية: أفعال الغافل تنتهي إلى أن تكون محاذية تماماً لأفعال العدو.

رياضياً، يصبح اتجاه فعله معادلاً لاتجاه فعل خصمه، أي أنه يتشكل على صورته.

تأصيل علمي

يمكن النظر إلى هذا النموذج من خلال نظرية الألعاب أو الديناميكيات التطورية. ففي الألعاب المتكررة، إذا تجاهل المتعلم توزيع استراتيجيات العدو واكتفى بالتقليد، فإن أفعاله ستتقارب حتمًا مع استراتيجيات خصمه.

بهذا يصبح واضحًا أن الحكمة البلاغية ليست مجرد وعظ أخلاقي، بل قانون يمكن تفسيره بمنطق العلم: من لا يفهم عدوه يتحرك بالضرورة على خطاه، ويتشكل على صورته. إنه قانون يتكرر في الفكر والسلوك، كما يتكرر في الرياضيات والفيزياء والتاريخ.

المعادل الفيزيائي

أما في لغة الفيزياء، فالمعادلة الكلاسيكية البسيطة ($F=ma$) حيث F تشير إلى القوة (Force) المؤثرة على الجسم.

m تشير إلى الكتلة (Mass) الخاصة بالجسم، و a تشير إلى التسارع (Acceleration) الناتج عن هذه القوة.

فالجسم الذي يخضع لقوة خارجية من دون مقاومة، يتسارع في اتجاهها. أي أن الجسم ينطبع بطابع القوة المؤثرة عليه. وإذا كان "العدو" قوة مؤثرة، فإن الجهل بها يعني الانقياد لها. ومن هنا يتضح أن الفكرة ليست وعظاً أخلاقياً فحسب، بل قانوناً فيزيائياً للحركة: ما لم تُدرك القوى التي تؤثر عليك، ستجد نفسك تسير على مسارها.

شواهد التاريخ

التاريخ نفسه يقدم أمثلة صارخة على هذا المبدأ:

الرومان واليونان: بعد أن هزم الرومان اليونان عسكرياً، لم يدركوا أن الخطر الأكبر لم يكن في السيوف بل في الثقافة. فمع الزمن، صار الرومان يشبهون اليونان في الفلسفة والفن والدين، حتى قيل: "اليونان المهزومة أسرت الرومان المنتصرين".

المغول والحضارة الإسلامية: حين غزا المغول المشرق الإسلامي، لم يفهموا عمق الحضارة الإسلامية التي واجهوها. ومع مرور عقود، انطبعوا بها، فاعتنقوا الإسلام وتبنوا الإدارة الإسلامية حتى صاروا نسخة من العدو الذي أرادوا محوه.

الاستعمار الأوروبي في المشرق العربي: كثير من النخب المحلية لم تدرك طبيعة المستعمر ولا أدواته الثقافية، فكان أن تبنّت نمط حياته وتشريعاته وقيمه، حتى غدت انعكاساً لصورة المحتل أكثر مما بقيت على أصالتها.

هذه الأمثلة تكشف أن من يجهل عدوه لا يفقد المعركة فقط، بل يفقد ذاته بالتدريج.

الدرس العميق

هذا التداخل بين الحكمة والقانون والرياضيات والفيزياء والتاريخ يكشف أن العبارة ليست مجرد جملة بل منظومة فكرية. فهي تحذر من خطورة الجهل بالعدو، وتُبرز

أن الفهم والمعرفة ليسا ترفاً بل شرطاً للتمايز والاستقلال. ومن يتخلى عن الفهم، يتنازل ضمنياً عن حريته في أن يكون مختلفاً، فيتحول تدريجياً إلى صورة من عدوه.

وأخيرا يبرز جوهر الحكمة: الجهل بالعدو يقود إلى التشكل على صورته، أما المعرفة فتقي من ذلك.

التوقيع الأكاديمي

د. إبراهيم محمد عبد الجليل

باحث في فلسفة القانون وعلم الاجتماع القانوني وتاريخ النظم القانونية القديمة

عضو في YouTube – Internet Archive – Academia.edu – ORCID

البريد الإلكتروني: profibrahim2022@gmail.com

ORCID iD: https://orcid.org/0009-0000-3089-6790

صفحتي الأكاديمية: https://independent.academia.edu/ibrahimProf

أبحاثي على أرشيف الإنترنت: https://archive.org/details/@prof_ibrahim586

قناتي على يوتيوب: https://www.youtube.com/@profibrahim9550

للتواصل00201011508408